

العتبات النصية في كتب الكفعمي (ت ٩٠٥ هـ)

**The Textual Thresholds In The Books
Of Al- Kaf 'amī (D. 905.H.).**

م. د. عاد كامل صابر العبيدي
جامعة كربلاء - كلية العلوم الإسلامية - قسم اللغة العربية

By: -

Prof. Dr. Ād Kāmil Ṣābir Al- 'Ubaydī.
University Of Kerbala
College Of Education For Human Science
Department Of Arabic Language.



الملخص

لاشكَّ في أنَّ الكفعمي استجاب لِمَا أملاه عليه معتقده الراسخ بأهل البيت (عليه السلام)، وقد عبَّر عن هذه الاستجابة بتأليف مصنَّفات متنوعة مكتنزة دينيًّا وثقافيًّا، وقد أتاح الموروث الديني الثَّرائي نشاطًا متميزًا وظَّفَه الشيخ؛ ليتَّج لنا تلك المصنَّفات التي حوت الأخبار والأذكار والأدعية والأحاديث الموروثة عن أهل البيت (عليه السلام)، ولقد بدا الشيخ لصيقًا بهذا الإرث مشدودًا له، فظهرت آثار ذلك في كتابته الأدبية التصنيفيَّة، وقد جعل للمصنَّفات مداخل من عنوانات ومقدمات تُهيء القارئ قبل الدخول إلى فضاء تلك المصنَّفات، فانبنت فكرة دراسة بنية العنوان بوصفها عتبة والمقدمة بوصفها عتبة أيضًا في نتاج الكفعمي، ولعل الهدف الرئيس من دراسة العنوان والمقدمة في مُصنَّفات الكفعمي، يمثل ضرورة للتعرف على الوعي الحاصل عند الكاتب بالعنوان والمقدمة؛ إذ تضطلع هاتان العتبتان عند الكفعمي بدور أساسيٍّ في تشكيل الهيكل العام لمصنَّفاته الموسوعيَّة.

الكلمات المفتاحيَّة: العتبات النصيَّة، الشيخ الكفعمي.

Abstract.

There is no doubt that Šayḥ Al- Kaf'amī had deep belief in his own faith as loyal person to the members of the Muḥamadan Prophetic Household (pbut). Hence, he did the best he could do as what his doctrine dictates. So, he positively responded through writing many compilations concerning the faith and theological culture. His theological legacy contains a rich religious and cultural heritage which was employed by him to introduce so many reports, prayers and transmittive accounts around the Household of the Prophet Muḥamad (pbut). Al- Kaf'amī seems to have been so inherent and cohesive to that heritage as it has been clear in his literary works. So, as it is noticeable that he added to his compilations many titles and introductions. As a result, it could be said that the titles and introductions could be depicted as thresholds. This article, however, aims to make clear the introductions and the titles that were used by Al- Kaf'amī as far as it concerns the frame of his compilations in that time.

Key Words: The Textual Thresholds, Šayḥ Al- Kaf'amī.

بسم الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله - خير الأسماء - وبه نستعين، وصلّ اللهم على خير خلقك أجمعين، محمد عليه وآله وعلى آله الطاهرين، اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم، أمّا بعد

فإنّ هذه الدراسة قد اشتغلت على تقديم قراءة جديدة في مصنّفات متنوعة، مكتنزة ثقافيًا، ودينيًا وأدبيًا، وهي بلا شك مقارنة لتناج عالم موسوعي جليل، نهل من ثقافة أهل البيت عليهم السلام، وتشرب حبهم، وطفق يعرب عن ولائه لهم في مختلف كتابته النثرية والدينية، ولقد حاولت هذه الدراسة أن تقرّأ تلك المدونات الكفعمية قراءة تجعل من مصطلح العتبات منهجًا قرائيًا، وآلية إجرائية، ولا شك في أن تشكيل هذه العتبات ينطلق من منطلقات؛ للثقافة الأدبية دور مهم فيها؛ لذلك ظهرت بنية العنوان بوصفها عتبة والمقدمة بوصفها عتبة أيضًا في نتاج الكفعمي بالشكل الذي لا يختلف عن مسارات الكتابة النثرية التي شاعت في القرن العاشر الهجري، الذي يُمثّل امتدادًا طبيعيًا لعصور الكتابة المتأخرة بعد سنة ٦٥٦هـ في الشر العربي.

ولقد وُسمت هذه الدراسة بـ(العتبات النصية في كتب الكفعمي ت ٩٠٥هـ)، وقُسمت على تمهيد ومبحثين، جاء التمهيد بعنوان وعي الكفعمي للعتاب النصية، وتكفل المبحث الأول بالبعد الوظيفي للعنوان، ونتج عن ذلك وظيفتان للعنوان: الوظيفة التعيينية، والوظيفة الإغرائية الإيحائية، وجاء المبحث الثاني متممًا للمبحث الأول وقد وسم بالبعد الوظيفي للمقدمات، وكان على نوعين من الوظائف: الوظيفة التعيينية، ووظيفة الأهمية، وخُتم البحث بأهم ما توصلت إليه من نتائج.

واستعان هذا البحث بجملة من المصادر والمراجع، جاء في مقدمتها المصادر الخاصة بالعتبات النصية ومنها: (في نظرية العنوان - مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصية. ووظائف العنوان في شعر مصطفى القطري).

وبعد؛ فإذا كان من تمام الفضل شكر ذوي الفضل؛ فإنني أتقدم بجزيل شكري ووافر امتناني إلى قسم شؤون المعارف الإسلامية والإنسانية، مركز تراث كربلاء؛ لما أبدوه من ملاحظ وأفكار قيّمة علينا، فجازاهم الله عنا خير جزاء المحسنين.

وفي الختام أقول: إنني قد بذلتُ ما بوسعي في هذه الدراسة، فإن كنت قد بلغت الغاية المرجوة منها فالفضل لله، وإن كانت الأخرى فالتقصير مني، وحسبي أنني قد حاولت، ولا كمال إلا لله، نسأله أن يتجاوز عن زللنا وأخطائنا إنه سميع مجيب، والحمد لله رب العالمين.

التمهيد

وعى الكفعمي بالعتبات النصّية:

العتبات النصّية أو النص الموازي، هو مصطلح غربي وافد، يُعرّف بأنّه «ملحقات نصّية وعتبات نطوؤها قبل ولوج أي فضاء داخلي، كالعتبة بالنسبة إلى الباب»^(١).

فلا شكّ «أن لكل نص مكتوب وظيفة إيقونية يجب أخذها في الاعتبار مثل: العناوين، المقدمات، الإهداءات، الصور الرسوم... وهي كلّها علامات، ومؤشرات ملائمة للمقاربة الشمولية للنصّ... والقارئ الذي ينجز هذه القراءة هو القارئ المناصي الذي يشتغل على فهم العتبات النصّية وتفهمها تحليلًا وتأويلًا»^(٢).

«ولعلّ أهمّ مظاهر العتبات عند العلماء قديمًا ما تعلّق بالمقدمة والخاتمة؛ لما لهما من خصوصية مميزة، ولا ارتباطهما بأصول دينية، تطورت فيما بعد لتأخذ أبعادًا فنية وبلاغية شملت إلى جانب النصّ القرآني كلّ أصناف الخطابات. فقد تقرر أنّ كلّ عملٍ يجب أن يُفتتح بالبسملة ويُختم بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه [آله] وسلم»^(٣).

قد عرف القرن العاشر الهجري ثقافة الاهتمام بالعنوان والمقدمة، فقد

(١) لماذا النص الموازي (بحث): ٢٢١.

(٢) مكونات النص الروائي (تطبيق شبكة القراءة على روايات محمد برادة)، (أطروحة) لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف: د. واسيني الأعرج، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨ م: ٣٩.

(٣) مدخل إلى عتبات النص دراسة في مقدمات النقد العربي القديم: ٣١.

زخر باهتمام كبير في رسم العنوان وتسمية الكتاب وبناء مقدمته بشكل يتساق مع ما تحمله ثقافة هذا القرن، فلا غرابة بأن نجد الكفعمي^(١) قد حمل التراكمات الثقافية من المنجز الأدبي والديني مع الاحتفاظ بالطابع الخاص للمؤلّفات التي اشتغل عليها، ولعلّ نظرة فاحصة إلى عناوات كتب الكفعمي ومقدماته المتنوعة تشي بنوع خاص لفهم آلية العنونة والتقديم، إذ اعتنى بعناواته عناية خاصة ووضع التسمية للكتاب المنتج بعد إنجازه، وهذا بحد ذاته يعد خطوة تنم عن ملامح وعي بمفهوم التعيب في عصر الكفعمي، وله في ذلك شواهد من كتبه منها قوله عند تقديمه لكتاب (صفوة الصفات في شرح دعاء السمات): «وسميتها صفوة الصفات في شرح دعاء السمات وربما فسرت الشيء في غير مداره فيأتي أحسن من مركزه، وذلك لئلا ينقع الكلام ويتطلع الانتظام»^(٢)، وترفد ذلك مقدمات وعناوات أخر متنوعة بتنوع الموضوع ومنها كتاب: (البلد الأمين والدرع الحصين) إذ أوجد الكفعمي تطوراً ملحوظاً في التسمية حينما قال: «وقد رسمت ما وضعته ووسمت ما جمعته (بالبلد الأمين والدرع الحصين) وهو اسم وافق المسمى ولفظ طابق المعنى»^(٣)، ونجده يكرّر عبارات بعينها عند تسمية الكتاب «وسميته جنة الأمان الواقية وجنة الإيمان الباقية وهو اسم وافق المسمى ولفظ

(١) إبراهيم بن علي بن الحسن الحارثي العاملي الكفعمي، تقي الدين: أديب، من فضلاء الإمامية، نسبته إلى قرية (كفر عيما) بناحية الشقيف، بجبل عامل، ومولده ووفاته فيها. أقام مدة في كربلاء. له نظم ونثر. واختلف في تاريخ وفاته، لكن الراجح أنها سنة (٩٠٥ هـ). ينظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ٧ / ٣٤٣.

وينظر: الأعلام: ٥٣ / ١

(٢) صفوة الصفات في شرح دعاء السمات: ٦٤

(٣) البلد الأمين والدرع الحصين: ٩

طابق المعنى»^(١) وفي ذلك دلالة على عمق هذه الآلية الإجرائية في تسمية العنوان مؤكدة على وعي أولي لمفهوم العتبات النصية؛ إذ لا يمكن القول: إنَّ الكفعمي قد كان على وعي كبير في مصطلح العتبات، لكن ملامح وعيه هذه هي امتداد لملامح العصر العباسي والعصور المتأخرة، وبالرجوع إلى التراث العربي نجد أن هذا الوعي كان حاضرًا لدى مصنّفي كتب الأدب والدين والتاريخ.

(١) جُنَّة الأمان الواقية وجَنَّة الإيمان الباقية: ١٠

المبحث الأول: البعد الوظيفي للعنوانات

تشكّل العتبات من إمكانات قرائية تعين المتلقي على فهم حيثيات النص، وتضطلع تلك الإمكانات بوظائف عدة، تساعد في فك شفرات العنوان، عبر قراءة أولية قبل الدخول إلى محتوى الكتاب، وتعاوض هذه الوظائف مجتمعة لتسهم في إنتاج صورة أولية عن ملامح النص المكتوب، وتعمل هذه الوظائف في تكوين عقد قراءة بين الكاتب والمتلقي.

لا شك أنّ العنوان هو مكون يتمتع بموقع مكاني خاص؛ موقع استراتيجي جعله يكتسب خصوصية تهبه قوة نصية لأداء أدوار ووظائف فريدة في الاتصال الأدبي^(١).

والعنوان بنية نصية موازية تحمل نظاماً معقداً متشابكاً بإحاطته داخل النص وخارجه، وإنه عتبة من عتبات النص تربط الداخلي بالخارجي، والداخل بالمدلول فضلاً عن أنّه يحمل وظيفة إعلانية مرسلة إلى المتلقي، فهو أول رسالة يواجهها القارئ ويبدأ تفاعله معها ليكون بذلك أداة رئيسة في تنظيم عمليات التلقي للنص؛ لما يحدده ذلك من تأويلات تنبثق من ثقافة المتلقي وتفاعله معه^(٢)، ولا شك في أنّ العنوان يخزن طاقة تعبيرية لا يقلل من شأنها كونها تكشف عن ذاتها بيسر وتجود بمعطياتها من دون حاجة إلى أعمال الفكر في تقصي التأويلات واجترار صيغ دلالية وجمالية قد تجانب الواقع بقدر ما توافقه^(٣)، وقد يحتاج العنوان إلى الكشف عن الخيوط المرتبطة في

(١) يُنظر: في نظرية العنوان: ٩٧

(٢) يُنظر: الكتابة والمحو التناسية في أعمال رجاء عالم الروائية: ١٢٩.

(٣) العتبات التأليفية المحيطة في أعمال صنع الله إبراهيم الروائية (أطروحة)، ١٧.

النص والموصلة إليه ويجترح التأويلات لفك شفراته المغلقة عبر هذه الصيغ الدلالية والجمالية.

ويعدُّ العنوان بنية نصية وليس شيئاً جمالياً خالياً من الحمولات الدلالية التي تشحن المتن فالعنوان أحد الأمكنة المفصلة للعمل الأدبي لشدة تأثيره على القارئ^(١) ف«على الرغم من الطابع الاختزالي للعنوان فإنه ينجح في بناء خطاطته التواصلية في ضوء العمل الذي يتقدمه، الأمر الذي يدفعنا إلى أن نؤمن بوجود خطاب عنواني ينبغي الكشف عنه»^(٢).

ولابدّ من الإشارة إلى أنّ معظم وظائف العنوان تُدرك من خلال النص، فالنص يحدد طبيعة هذه الوظيفة^(٣)، ولأنّ وظائف العنوان من المباحث المعقّدة للنص الموازي؛ لذا اتجه عدد من الدارسين إلى تحليله مستعينين بالوظائف اللغوية التواصلية العامة التي طرحها (ياكسون) في خطاطته الشهيرة، ومتخذين منها سبيلاً للمقاربة؛ ليُفتح الباب - بعد ذلك - واسعاً أمام السيميائيين للبحث في هذه الوظائف على تعقيدها واختلاف وجهات مقاربتها^(٤).

وقد لحظ (جينيت) ذلك وشخصه في التعميمات النظرية التي طالت

(١) يُنظر: السيميوطيقا والعنونة: ٢٢٣

(٢) إشكالية مقاربة النص الموازي وتعدد قراءته - عتبة العنوان نموذجاً، (بحث) د. محمد التونسي جكيب، مجلة جامعة الأقصى، يونيو ٢٠٠٦م، عدد خاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي الأول لكلية الآداب/ جامعة الأقصى (النص بين التحليل والتأويل والتلقي) المنعقد في يومي الأربعاء والخميس ٥/ ٦ أبريل ٢٠٠٦م: ٥١٥.

(٣) ينظر: وظائف العنوان في شعر مصطفى القطري، بحث في مجلة مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، العدد الرابع جامعة سكرة، ٢٠٠٨م: ٩٨.

(٤) يُنظر: عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص): ٧٣ - ٧٤.

وظائف العنوان في ظل طرح بعض الدارسين الذين سبقوه، وقد جعل هذا التعميم الوظيفي منطلقاً له في التحليل، فوضع بعض الملاحظات المعدّلة والمكمّلة لما سبق^(١) انتهت به إلى وضع شبكة وظائفية مكتملة للعنونة في الأعمال الأدبيّة عامّة؛ مختزلاً فيها أهم الوظائف التي يضطلع بها العنوان، وعلى هذا الأساس يناط بالعنوان مجموعة من الوظائف وهي:

١. الوظيفة التعيينيّة التي تعيّن اسم الكتاب، وتعرّف به القراء بكل دقة وبأقل ما يمكن من احتمالات اللبس، ويطحها آخرون تحت مسميات أخرى، هي الوظيفة الاستدعائية، أو الوظيفة التمييزية، أو الوظيفة المرجعية^(٢).

٢. الوظيفة الوصفية وهي التي يقول العنوان عن طريقها شيئاً عن النص؛ فهي المسؤولة عن الانتقادات الموجهة للعنوان، وقد تكون تسمية غولدنشتاين لها بالوظيفة التلخيصية، محاولة منه لإيجاد تطابق بين اسمها بوصفه (دالاً)، ومؤدّاها بوصفه (مدلولاً) فهي توجز وتكثف حمولات النص؛ ولهذا يرى (أمبرتو إيكو) أنها مفتاح تأويلي^(٣).

٣. الوظيفة الإيحائية «وهي أشد ارتباطاً بالوظيفة الوصفية»^(٤)، ولكونها تحمل قيمة إيحائية فقد أصبحت تستهوي القراء المعاصرين^(٥).

٤. الوظيفة الإغرائية التي يناط بها تشويق القارئ وجذبه ويحذر (جينيت) من أن يكون العنوان سمساراً للكتاب على حساب معنى النص ومضمونه^(٦).

(١) يُنظر: عتبات النص: ٧٤.

(٢) يُنظر: المرجع نفسه ٨٦.

(٣) يُنظر: المرجع نفسه ٨٧.

(٤) عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص) ٨٧.

(٥) يُنظر: المرجع نفسه ٨٣.

(٦) يُنظر المرجع نفسه: ٨٢.

إلا أن كون الكتاب منتوجاً أصلاً قصد الاستهلاك يقلل من تحذير (جينيت). وهنا يتعرض العنوان لضغوطات من جانبين: صاحب النص الذي يسعى لتحميل عنوانه أقصى طاقة تعبيرية/ إيحائية، وصاحب دار النشر الذي يسعى بدوره إلى التجاوز على هذه الوظيفة وإزاحتها لصالح وظيفة تسويقية/ دعائية تضع المردود المادي في قمة أولوياتها^(١).

وقد تجلّت وظيفتان رئيستان في معظم عناوات الكتب الواقعة في حيز دراستنا مع الاحتفاظ بالخصوصية التي تنتج من صدور خطاب العناوانات الذي يحمل طابعاً دينياً، من الخطاب الديني الذي تبناه الكفعمي: الوظيفة التعيينية، (التطابقية)، والوظيفة الاغرائية المراوغة.

أولاً: الوظيفة التعيينية:

تعلن هذه الوظيفة عن ماهية النص وتضطلع بمهمة «إبراز هوية النص وانتمائه»^(٢) فتعيّن اسم الكتاب/ العمل، وتعرّف به للقراء بكل دقة، وتسمى أيضاً (بوظيفة التسمية)؛ لأنها تتكفل بتسمية العمل ومباركته، وهي أكثر الوظائف شيوعاً وانتشاراً، ويستعمل بعض النقاد تسميات أخر لهذه الوظيفة مثل استدعائية ومرجعية، إلا أنها تبقى الوظيفة التعيينية والتعريفية، وهي الوظيفة الوحيدة الإلزامية والضرورية، غير أنها لا تنفصل عن باقي الوظائف؛ لكونها دائمة الحضور ومحيطة بالمعنى^(٣).

وتتجلّى هذه الوظيفة في نمط خاص من العناوانات ولا سيما تلك التي

(١) عتبات النص: ٨٥.

(٢) هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل - دراسات في الرواية العربية: ٣٨.

(٣) يُنظر: عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص): ٨٦، وينظر: وظائف العنوان في شعر مصطفى محمد الغماري (بحث): ١٠٠.

تشكل من بنية تركيبية، نستطيع أن نسميها البنية التعاضدية؛ لأنها تتكون من طرفين يتعاضدان لإنتاج العنوان، وتخضع لهذه المعادلة التركيبية التي تتكون من: عنوان رئيس وعنوان فرعي هو عنوان شارح ومفسر للعنوان الرئيس، فقلما نجد عنواناً متصديراً وحده دون عنوان فرعي، فهو دائماً يخضع لمعادلة عنوانية متوازنة هي: عنوان + عنوان فرعي^(١)، ويرتبط الاثنان بعلاقة حميمية توافقية يستند فيها الأول إلى الثاني والثاني إلى الأول؛ فإذا سقط أحدها انهار البعد الدلالي للعنوان، وهذا خاضع لإستراتيجية المؤلف في تشكيل العنوان التي يمكن أن نسميها بإستراتيجية نظم العنوان، وهذا النوع من النظم صادر من تعالق جزأي العنوان مع بعضهما.

ونتلمّس ذلك كله في نتاج الكفعمي؛ إذ تكون العنوانات الفرعية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالجملة الرئيسة، متكونة من تراكيب لغوية تخضع لمعادلة بنائية متماسكة، مثال ذلك كتاب: (رتق الفتوق في معرفة الفروق)، فالمتمعن في هذا العنوان يهتدي إلى تأويل نتيجة القراءة الأولية للعنوان يتضح معه أن أصل العنوان هو: هذا كتاب (رتق الفتوق)، فالعنوان بهذه الصورة يشترك في تسمية الإدراك عند المتلقي في الركن الأول منه ويتكشف الإدراك عند المتلقي في الركن الثاني للعنوان، وأن العنوان الفرعي للنص هو جزء لا يتجزأ من تركيبية العنوان الكاملة، إذ يقع ضمن المتوالية اللغوية التي يتركب منها العنوان: مسند إليه + مسند (كتاب) محذوف + مضاف إليه + مضاف إليه + حرف جر + اسم مجرور + مضاف إليه، وربما انمازت هذه المعادلة بنوع من الثبات في عنوانات النمط التعييني في القرن العاشر الهجري، وهي على الرغم من اتصافها بسمة الجمود التي تحيل على التقليد، إلا أنها - ولا سيما

(١) يُنظر: عتبات جزار جينيت من النص إلى المناص: ٦٨.

في لغة العنوان_ تتمتع بقدر كبير من الخصوصية من الجملة العنوانية أولاً ومن العلاقات التي تربطها بعناصر العمل الآخر ثانياً.

إنَّ العنوان الفرعي مكوّن مهمّ من مكوّنات العنوان العام في نتاجات الكفعمي؛ فهو يشي بمقدار الوعي العالي الذي تمتع به حين فهم ضرورة تشكيل العنوان من ركنين رئيسي وفرعي، فالإبهام والضبابية والإغراء تحققت كلها في العنوان الرئيس (رتق الفتوق)، والوضوح والشرح، والتفسير، يصدر عنهما العنوان الفرعي (في معرفة الفروق)؛ لأنّ الذاكرة الجمعيّة لكتب اللغة ترفد الساحة اللغوية بكم كبير من هذه العنوانات؛ إذ كانت الشغل الشاغل للكثرة الغالبة من مؤلفي كتب اللغة، والفروق لدى المتلقي واضحة لا تحتاج إلى تأمل طويل سوى الوصول إلى ذاكرة التأليف العربي فتتبارى العنوانات في ذلك ومنها على سبيل المثال: كتاب الفروق للأصمعي، وكتاب الفروق للسجستاني والفروق اللغوية لأبي هلال، وغيرها من المؤلّفات في هذا المجال.

والذي يسجّل خصوصية للكفعمي أنّه صدر عن رؤية دينيّة وهو يضع عنوان مصنفه مما يظهر هيمنة العقل الديني عليه حتى في الميادين اللغوية الصرفة فقد استدعى في عنوانه هذا عبارة من نص مقدس بنى عليها عنوان مؤلفه دليلاً وصوتياً؛ إذ ينطلق المؤلّف من منطلق ديني صرف حتى في اختيار فروقه اللغوية فالعنوان الذي تشكل من شقين، نلاحظ عليه في الشق الأول تناس الكاتب مع القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾^(١)، وإن كان مقام الحدث يختلف في القرآن الكريم، إلّا أنّ الكفعمي بثقافته الدينية استطاع أن ينجح في تشكيل عنوانه وتلغيز الشق الأول منه وتأطيره بإطار ديني ومن ثمّ أتى بالشق الثاني للعنوان موضحاً وشارحاً ومخبراً بما سيكون عليه المتن.

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٩

وبهذه الثنائية المتضادة المتعاضدة في الآن نفسه أدّى العنوان مكتملاً دوراً في التأثير على المتلقي وجذب اهتمامه عبر هذا التركيب المتضاد الذي اختلفت فيه مستويات الإيضاح والإبانة؛ إذ حمل الشق الأول منه ضبابية الدلالة وفتح الشق الثاني منه ما أغلق من دلالات هذه العنوانات، والكفعمي في تشكيل مجموعة من عنواناته لم يخرج عمّا تعارف عليه الكتاب في هذا التشكيل؛ بل إنّ الكاتب قد استعان بثقافته الموسوعية في رفد عنواناته المنجزة.

وقد يختلف الإخبار في الشق التفسيري في العنوان الفرعي في جملة من مصنفات الكفعمي، إذ نجد أن منسوب التفسيرية في العنوان الفرعي قد ارتفع كثيراً؛ لأنّ العنوان الرئيس قد ترك الباب مفتوحاً للتأويل، من ذلك (صفوة الصفات في شرح دعاء السمات)، و (المقام الأسنى في تفسير الأسماء الحسنی)، و (نهاية الأرب في أمثال العرب)، و (زهر الربيع في شواهد البديع) ويمكن أن نصف هذا النمط من العنوانات بصفة متناقضة، وهي أنّه مُتَسَائِلٌ مجيب في الآن نفسه، فالشقُّ الأول من العنوان يفتح باب الأسئلة التي تبقى مطروحة إذا غُيِبَ الشق الثاني وتغلق هذه الباب إذا حضر الثاني وهذا ما قد يحصل في كتب التراجم حين يكتفي المترجم طلباً للإيجاز بذكر الشق الأول من العنوان، وهنا يدخل المتلقي على الخط؛ إذ يثير هذا الحضور المحذوف فضولاً قارئاً عنده يدفعه نحو طلب الكتاب وإرضاء رغبة المعرفة فيه وهذا لون من ألوان الإشهار غير المتعمّد.

ثانياً: الوظيفة الإغرائية:

تعمل هذه الوظيفة عبر صيغة العنوان على إغراء المتلقي لقراءة النص، وهي وظيفة مراوغة لا يمكن القبض عليها بسهولة؛ إذ يجب فك شفرات العنوان

وفهم رموزه التأويلية للوصول إلى قراءة جيدة، والإغراء سمة عامة لها، فلا بد للعنوان أن يغري المتلقي ويدفعه لقراءة المتن، فالكاتب عليه أن يضع في حسبانته المتلقي أولاً في اختيار العنوان الأكثر إغراءً وفضولاً لحديثه^(١).

ولقد تنوع العنوان عند الكفعمي فتارة يكون تعيينياً وتارة يكون إغوائياً مراوفاً، ويمكن أن نقف عند مجموعة عنوانات إغرائية في نتاج الكفعمي ومنها كتاب (البلد الأمين والدرع الحصين)، و (جنة الأمان الواقية وجنة الإيمان الباقية)، وكتاب (محاسبة النفس اللوامة وتنبيه الروح النومة) فالناظر إلى هذه العبارات يعثر على عنوانات مراوغة تطرح تساؤلات شتى؛ فهي تؤسس لمجموعة تساؤلات عند المتلقي عند التلقي الأول قبل النص، على سبيل المثال ما جنس التأليف فيها؟ وإلى أيّ حقل تنتمي؟ فالعنوان قد أدى وظيفة إغوائية إغرائية تضعه ضمن العنوانات المراوغة التي لا تحدّد جنس النص وماهيّته وموضوعه؛ فهو بعيد عن العنوانات التي تنهض على مبدأ موضوعاتي لتعيين موضوع النصّ.

فكتاب (البلد الأمين والدرع الحصين) يحيلنا على متخيل مقدّس طالما داعب الذاكرة الجمعيّة للعرب والمسلمين، فالبلد الأمين مكة وموطن الرسول محمد صلى الله عليه وآله، وهو بهذه القدسية يمنح هذا الكتاب بعداً دينياً، أما الشق الثاني له (الدرع الحصين) فلا يفك شفرة الشق الأول فيبقى المتلقي في مشار يمارس الحفر والتأويل بحثاً عن إجابات لأسئلة قد ولّدها غموض العنوان، وغالباً لا يصل إلى نتيجة، ولا يمكن معرفة المقصد من هذا العنوان من دون الرجوع إلى المقدّمة والمتن، فقد ذكر الكفعمي في مقدّمة الكتاب أنّ من التجأ إلى هذا البلد الأمين فهو في درع حصين، والكاتب في هذا كله

(١) النظرية البنائية في النقد الأدبي: ١٩٧

ينطلق من منظور ديني؛ إذ نجده يتناص مع القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾^(١)، فهو يوطّر عنوانه بإطار ثقافي مقدّس؛ لأنّ الضاغطة الديني له تأثير مباشر في نفوس المتلقين، ونلمح ذلك في مقدمته التي ذكر فيها أنّ الكتاب عبارة عن أدعية وأذكار من عمل بها فهو آمن وتحصّن بحصن الإسلام، وأمن من العقاب، فهو في فوز ونعيم في الدنيا والآخرة.

ولعل كتاب (جُنة الأمان الواقية وجُنة الإيمان الباقية) تشكل وتأطر بإطار خاص يخضع لجملة من المتركزات الأساسية التي تشكل نسيجه الثممي، منها ثقافة المصنف، وانتماؤه العقدي، ومنها ما خصّ ثقافة العصر، فهذا التشكيل العنواني الخاص يدخل ضمن منطقة التراث الديني، فتشكيل العنوان من هذه الألفاظ يخبر بذلك، فكلمة جُنة المضافة إلى الأمان قد منحت النص قدسية خاصة فالجُنة في اللغة تعني الدرع والستر^(٢)، وهذا ليس بستر متهالك أو ضعيف؛ بل هو واقٍ للإنسان وأمان تام له إذا ما تمسك به، ورغد هذا التركيب عنصر الجنس الناقص الذي منح العنوان جمالية في التشكيل بين الجُنة والجُنة وهو يصدر عن جذر واحد (جَنَنَ)، فهذا الجنس قد أوجد موسيقى أغرت المتلقي وأوجدت علاقة معنوية بين الوقاية الإلهية ودرع التقديس وبين الحصول على جُنة إيمانية باقية، فقد اشترط الكفعمي في تشكيل عنوانه شرطاً يضمّر رضا الله تعالى بالعمل في مكنون هذا الكتاب؛ إذ نصّ على أنّ هذا الكتاب عبارة عن: «استخارات تكشف قناع البلوى أو أذكار هي أعز معقل وملاذ أو أسماء هي أحرز موئل ومعاذ أو أحرار تؤوي إلى ركن شديد أو حُجُب تبوي في قصر مشيد أو تعقيب يزوج قوله الحور

(١) سورة التين: الآية ٣.

(٢) يُنظر لسان العرب: مادة (جنن).

العين أو استغفار يكفر ذكره ذنوب المذنبين أو أجر فرض يفرض لمفترضه
جنة وحريراً أو مثوبة سنن تسنى وتنيل نعيمًا وملكًا كبيرًا... أو تفاسير هي
كزاجاة المصباح عند الاستصباح فمن سلك مناهج معالم معاليه حكم
القضاء الإلهي بمعاداة معاديه»^(١)

يمكن لنا أن نقدم في العناوانات المؤدية للوظيفة التعيينية قراءتين الأولى:
سلبية تنطلق من النظر إلى هذه العناوانات بوصفها عناوانات مكشوفة تموت
في لحظتها، فبعد أن يعبر المتلقي منطقة الشق الأول يفهم المغزى من
الكتاب كله حين يصل إلى منطقة الشق الثاني التفسيري، وهذا يضعف
خاصية الإغراء في العنوان، وأما القراءة الإيجابية يكون فيها العنوان دالاً
مباشراً ومهما يستعين به المتلقي للوصول مباشرة إلى هدف الكتاب وغاياته
من دون توريط ذهنه بعملية تأويلية قد تطول، وهذا ملائم للمتلقي الكسول،
على الرغم من أننا نسجل على هذا النمط من العناوانات ما شاع من سمات
تصنيعية تقليدية ظهرت في العصور المتأخرة واستمرت حتى بزوغ فجر
الحداثة العربية.

(١) جُنة الأمان الواقية وجنة الإيمان الباقية: ٩ - ١٠.

المبحث الثاني : البعد الوظيفي للمقدمات

يندرج الخطاب المقدّماتي ضمن ما يُسمّى بالخطابات الموازية للنصّ، والمؤسّسة له، انطلاقاً من اشتغالها على أسئلة أساسية، وقضايا فكرية تدخل في الخاص والعام، وقد حاولت الدراسات النقدية الحديثة، مقارنة هذا الخطاب، انطلاقاً من كونه عنصراً، من عناصر النص الذي يُشكّل جهازاً مقدماتياً عاماً؛ إذ المقدّمة فيه شرط بالضرورة، من خلال مساهمتها في الإحاطة بالجنس الأدبي، وفك بعض رموزه التي قد لا يتأتّى للكاتب تبسيطها داخل النصّ / العمل^(١).

وقد كان العرب المصنفون واعين أشد الواعي بأهمية المقدّمة ووظائفها وأدوارها المتميزة وسلطانها الخطابية الإقناعية؛ لذلك أنفق على أنّها اجتمعت مقدماتهم على احترام كثير من القواعد التي تبدو أساسية في معماريتها وبنائها^(٢).

وتُعَدّ المقدمات خطاباً أساسياً موازياً حول النصّ / المتن، يُسهّم في بسط المفاهيم والأطر النظرية الخاصة بالإبداع والتأليف التي يروم الباث إيصالها؛ لذا فهي تمثّل - في الغالب - اختياراً قصدياً قائماً على الوعي بالإرث المعرفي النظري والتطبيقي الذي برهن على أهميّة هذا الخطاب ووظيفته في تفكيك المدوّنة، بل المكونات المؤطرّة لتجربة العمل عموماً^(٣).

إنّ المقدّمة خطاب موجّه نحو النصّ والمتلقي، قصد بناء نمط من القراءة

(١) يُنظر: هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل: ٤٩.

(٢) يُنظر: مدخل إلى عتبات النص: ٣٩.

(٣) يُنظر: النص الموازي - آفاق المعنى خارج النص، (بحث): ١٤٤.

المتوخاة أو تحديد ذلك النمط، وهذه الوظيفة التوجيهية جزء من استراتيجية المقدم في تحديد علاقة المتلقي بالنص^(١).

١. وظيفة الأهمية:

تكشف هذه الوظيفة عن أهمية الكتاب على الصعيد العام؛ أي ما يقدمه بالنسبة للجمهور والقراء بشكل عام على المستوى الثقافي والأدبي، وعلى الصعيد الخاص ما يقدمه لفئة القراء الواعين الذين يمثلون النخبة من الجمهور وتنتج هذه الوظيفة في مقدمات كتب الكفعمي بطرائق عرض متعددة تختلف باختلاف أساليب الكتاب في محاولة الكشف عن أهمية مؤلفاتهم؛ لذلك نجد كل مقدمة تحتفظ لنفسها بأهميتها الخاصة.

فمن أهم الخطابات التقديمية التي تكشف عن وظيفة الأهمية هي مقدمة كتاب (جُنة الأمان الواقية وجُنة الإيمان الباقية)؛ إذ عمد الكفعمي إلى ذكر أهمية الكتاب عبر مقدمة تقريرية وتلمس ذلك في مواضع عدة من المقدمة منها قوله: «فإني جمعت من الأدعية الصالحة والأوراد الناجحة والفوائح النفيسة الغالية والرواتب العظيمة البهية والعقود المنضودة من اللآلئ المنظمة بل جهات الخيرات المتصفة بالمكانة العلية والمنزلة العظيمة... فمن سلك مناهج معالم معاليه حكم القضاء الإلهي بمعاداة معاديه وموالة مواليه ومن أسفر نقاب وجوه مجاليه كان في دار السلام دانية له قطوف مجانيه ومن استظل بظلال أسمائه ومعانيه نطق ألسن مساعيه ببلوغ أمانيه»^(٢) ففي هذا النص من المقدمة يحاول المصنف أن يسلط الأضواء على أهمية الدعاء والأذكار وما ينتج عنهما من توحيد للربوبية وطمأنينة للقلب وراحة للنفس

(١) يُنظر: النص الموازي - آفاق المعنى خارج النص، (بحث): ١٤٥.

(٢) جُنة الأمان الواقية وجُنة الإيمان الباقية: ٩.

وبلوغ الغاية المرجوة، فمن تمسك بهذه الأدعية والأذكار نجا ممّا يسوء. وللتأكيد على أهمية العمل بهذه الأدعية قال: «قد عاذ به المتعبدون فهم في حصن حصين، ولاذ به المتعبدون فهم في مقام أمين يبشّرهم ربّهم برحمة منه ورضوان وجنّات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم»^(١).

وفي موضع آخر من المقدّمة يحاول الكاتب إبراز أهمية مؤلّفه عبر طرائق جمعة؛ فأهمية توثيق هذه الأدعية تكمن في الكتب المنتخبة الموثوق بصحتها فنجدّه قائلاً: «فهذا كتاب محتوٍ على عُوذ ودعوات وتسابيح وزيارات و... مأخوذة من كتب معتمدة على صحتها مأمور بالتمسك بعرونها لا يغيرها اختلاف العصرين ولا كرّ الملوين»^(٢).

ولا تخلو أغلب مقدّمات كتب الكفعمي من ذكر أهمية المنتج المراد طرحه للجمهور^(٣) ومنها على سبيل المثال لا الحصر مقدّمة كتاب (البلد الأمين والدرع الحصين) فقد اعتنى الكفعمي بمقدّمته هذه وعبر عن أهمية هذا الكتاب عبر التأكيد على أهمية إتباع ما جاء فيه؛ فهو عبارة عن جامع للأذكار والأدعية والزيارات أكد عليها آل بيت النبوة ﷺ وهي متفاعة لا تمجها الأسماع ومتجددة المعنى جميلة المبنى مأخوذة من كتب عليها الاعتماد وتلمس هذا في قوله: «هذا كتاب محتوٍ على عُوذ ودعوات وتسابيح

(١) البلد الأمين والدرع الحصين: ١٠

(٢) المرجع نفسه: ١٠

(٣) يُنظر مقدّمة كتاب درر المطالب وغرر المناقب في فضائل علي بن أبي طالب: ٤٧-٤٨، وكتاب مجمع البحرين في مناقب السبطين: ٤٦، ٤٧، ٤٨، وكتاب صفوة الصفات في شرح دعاء السمات: ٦٢، ٦٣.

وزيارات منقولة عن سادات القادات وقادات السادات الغر الميامين آل طه ويس لا تمج ألفاظها الآذان ولا يبلي معانيها الزمان، مأخوذة من كتب معتمدة على صحتها، مأمور بالتمسك بعروتها»^(١).

ويستمر الشيخ الكفعمي في ذكر أهمية هذا المنتج؛ إذ أورد في خطابه التقديمي ما يشير فيه إلى أهمية هذا الكتاب من ناحيتين؛ الأولى تتمثل بكونه كتاباً إحيائياً يحاول إحياء تراث أهل البيت (عليه السلام) الذي سبق عصر المؤلف، والثانية تأتي في سياق الترغيب؛ إذ قال: «من التجأ إلى معاقل صياصيه أمن من العدوان ومن تهجد بتلاوة أدانيه وأقاصيه حلّ بساحة الأمان»^(٢).

ويبدو أن كتاب (صفوة الصفات في شرح دعاء السمات) - وهو عنوان واضح المعلم لا يحتاج إلى شرح وتفصيل -، قد بين فيه الشيخ الأهمية المراد إيصالها إلى المتلقي في بقوله: «فقد أمرني الذي إذا ذكرت الألفاظ الروائع والعلماء البوارع والخطباء المصاقع والمناقب النواصع ومفاخر الرسايع ومحاسن المنابع والأقمار الطوالع... أنعقت عليه الأصابع وأثبت عليه المجامع وشهد بفضل المنابر والجوامع ونطق بفخره الأبصار والمسامع»^(٣).

فالأهمية المتجلية في هذه المقدمة تشكلت بوساطة إشارتين؛ الأولى أنها إحياء لتراث سبق يحمل طابعاً تقديسياً من لدن المتلقي المعاصر، والثانية: أنه كُلف بهذا الجمع. ومن الواضح أن هذا التكليف الذي تعمّد ذكره يضمن نسق السلطة؛ ليكشف عن أهميته ومنزلته التي تنسحب على أهمية كتابه الذي يشير إلى أن الكتاب عبارة عن شرح لدعاء مهم جداً كُلف الشيخ بشرحه من

(١) البلد الأمين والدرع الحصين: ٩.

(٢) المرجع نفسه: ١٠.

(٣) صفوة الصفات في شرح دعاء السمات: ٦٢.

لأن رجل مهم من رجال السلطة وهو يخفي أهمية أخرى إذ إنّ السلطة تلعب دوراً رئيساً في الترويج للكتاب فالسلطة كانت مقصداً لأغلب الكتّاب.

وهذا النمط من العنوانات الواضحة المعالم يشكّل ظاهرة في نتاج الكفعمي^(١)؛ إذ تتشكل هذه العنوانات تشكيلاً واضح المعالم دالاً على مكنون العمل المنجز، فتكون المقدّمة بهذا الوصف وسيلة للعبور إلى المتن، وتكون منطقة إبانة ثانية بعد العنوان الواضح والصريح، الذي لا يحتاج إلى تأويل وفك شفرات دلالية.

٢. الوظيفة التعينية:

وهي وظيفة تعالج العنوان فتوضحه وترصد جوانب مهمة فيه وتعرب عن جنسه وإلى أي حقل ينتمي، وتفك مغاليقه عبر الإضاءات التي تقدمها المقدّمة وغالباً ما يذكر فيها التسمية للكتاب وسبب التسمية.

ومن تلك المقدمات التقديمية مقدّمة كتاب (محاسبة النفس اللوامة وتنبيه الروح النوامة)، فالتلقي الأول للعنوان يضع تساؤلات أهمّها: ما مضمون هذا الكتاب؟ وإلى أي حقل ثقافي ينتمي؟ فهذا العنوان من العنوانات المراوغة التي لا يستطيع المتلقي القبض على ثيمتها المركزية إلّا عبر الدخول إلى العتبة الثانية للكتاب المقدمة، وربما يطرح تساؤل منطقي مفاده: كيف يحاسب الإنسان نفسه اللوامة وقد أقسم الله بها؟ وهل النفس اللوامة هي من تحاسب

(١) يُنظر على سبيل المثال: مقدّمة كتاب درر المطالب وغرر المناقب في فضائل علي بن أبي طالب، ومقدمة كتاب مجمع البحرين في مناقب السبطين، ومقدمة كتاب المقام الأسنى في تفسير الأسماء الحسنى، ومقدمة كتاب ومنهاج الحق واليقين في تفضيل علي أمير المؤمنين، ومقدمة كتاب كنز المطالب وبحر المناقب في تفضيل علي بن أبي طالب.

الإنسان أم الإنسان من يحاسبها؟ وهو يثير إشكالاً قد يلتفت إليه المختصون لما ينتج من لبس تولده القراءة السطحية، ولعل مغاليق العنوان تنفتح وتتضح بالدخول إلى العتبة الثانية (المقدمة)؛ إذ نجد الشيخ الكفعمي يفك هذا الإشكال والإيهام الموجود في منطقة العنوان في العتبة الثانية وهو يتحدث عن يوم القيامة: «لا يصل من هذه الأخطار الجليلة، إلا محاسبة النفس كل يوم وليلة، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وعظم يوم القيامة ثوابه، وحسن منقلبه ومآبه»^(١).

نلاحظ جلياً بأن الكفعمي يتحدث عن محاسبة الإنسان لنفسه ولم يتحدث في مقدمته كلها ولا في متنه عن أقسام النفس الإنسانية أو عن الروح بل أتى بالنفس عامة، حتى في الشق الثاني من العنوان (تنبيه الروح النومة) الذي عنى بها الكفعمي النفس الغافلة التي ابتعدت عن طاعة الله فوجب تنبيهها من هذه الغفلة فهذا الانزياح المقصود في الشق الثاني أراد الكاتب نقله إلى المتلقي بهذه الصورة فقال: (تنبيه الروح النومة)، فنجد من حيث اللغة لا مناصرة بين أركانها التركيبية، لكنها تخترق قانون اللغة وتنحرف عن منطقيتها، وتخلق وظيفة جديدة لها تتمثل بالوظيفة الإيحائية الجمالية الناجمة من إسناد النوم للروح؛ وهذا أدخل العبارة الثانية في عالم خيالي جميل؛ اذ ينهض هذا الانزياح على ثيمة مركزية توحى بوجود علاقة بين المستعار والمستعار له، وهذا بدوره يضطلع بمهمة تشكيل طرفين يعملان معاً في نظام واحد يُدخلان التنافر والتباعد والاختلاف في هذا التركيب، مما يعني إيجاد نوع من التنافر الذي يسبب مفاجأة المتلقي.

والمتمامل في هذا العنوان يلحظ أن الروح بمنزلة النفس، ومن يتصفَّح

(١) محاسبة النفس اللوامة وتنبيه الروح النومة: ٣٤

تفسير الميزان يجد أنَّ السيد الطباطبائي كان قد جمع بين النفس والروح فمخاطبة النفس هي مخاطبة للروح وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(١) اذ قال: «لفظ النفس - على ما يعطيه التأمل في موارد استعماله - أصل معناه هو معنى ما أضيف إليه، فنفس الشيء، معناه الشيء ونفس الإنسان معناه هو الإنسان ونفس الحجر معناه هو الحجر... ثم شاع استعمال لفظها في شخص الإنسان خاصة وهو الموجود المركب من روح وبدن، فصار ذا معنى في نفسه وإن قطع عن الإضافة... ثم استعملوها في الروح الإنساني لما أن الحياة والعلم والقدرة التي بها قوام الإنسان قائمة بها»^(٢)

وربما أراد بالمحاسبة هنا بمنزلة الوعظ والمساءلة ولم يرد منها التقرير والتوبيخ، ولعلنا نتلمَّس ذلك في قوله: «فإنَّ النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبادات، فكن لها الواعظ»^(٣)، ومن ثمَّ يأتي بحديث منقول عن الإمام علي عليه السلام: «قَيِّدُوا أَنْفُسَكُمْ بِمَحَاسِبَتِهَا وَأَمْلِكُوهَا بِمُخَالَفَتِهَا، تَأْمَنُوا مِنْ اللَّهِ الرَّهْبِ وَتَدْرِكُوا عِنْدَهُ الرِّغْبَ، فَإِنَّ الْحَازِمَ مِنْ قَيِّدِ نَفْسِهِ بِالْمَحَاسِبَةِ، وَمَلِكُهَا بِالْمَغَالِبَةِ وَأَسْعَدَ النَّاسَ مَنْ انْتَدَبَ لِمَحَاسِبَةِ نَفْسِهِ»^(٤).

ونلاحظ أنَّ أثر العقيدة واضح في اختيار الكفعمي؛ إذ انطلق المصنف في فكرته هذه من المرجعيات الدينية: أحاديث الرسول صلى الله عليه واله، وأحاديث الإمام علي عليه السلام، فنسق السلطة الدينية الولائية ضاغطة على فكر

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

(٢) تفسير الميزان: ١٤: ٢٨٥

(٣) محاسبة النفس اللوامة وتنبيه الروح النوامة: ٣٥

(٤) غرر الحكم: ٤٨٩٤

الكاتب، فالتمسك الذي يقف برزخاً بين الضلال، الإيمان هو تمسك بالقران الكريم وبالرسول وعترته الطاهرة الأئمة الأسياد، ولعلّ الناظر إلى حديث الإمام علي عليه السلام عندما سُئل عن كيفية محاسبة النفس يتضح أن المقصود من المحاسبة الوعظ والمساءلة فقد قال: «يا نفس إنَّ اليوم مضى عليك لا يعود إليك أبدأ والله سائلك عنه فيما أفنيتَه، فما الذي عملتَ فيه؟ أذكرتَ الله أم حمدتِه؟ أقضيتَ حقَّ مؤمن؟ أنفستَ عنه كربته؟ أحفظتِه بظهر الغيب في أصله وولده؟ أحفظتِه بعد الموت في مخلفيه أكففتَ عنه غيبة مؤمن»^(١).

لقد أبان الكفعمي عن فكرة كتابه في أكثر من موضع في مقدّمته وأكد تسمية الكتاب؛ إذ قال: «من لم يحاسب نفسه، وأضاع يومه وأمه، وتلفّع بملاءة الهوى، وتعرّى من لباس التقوى، وجب أن يطول في عرصات القيامة مقامه، وتدوم في مواقف يوم الطامة آلامه فحق على كل ذي علم، محاسبة النفس اللوامة وتنبية الروح النائمة»^(٢).

لقد ربط الكفعمي بين العنوان والمقدمة ومتن الكتاب وأوجد علائق بينها منها علاقة ارتدادية؛ إذ ارتدت المقدّمة على العنوان شرحاً وتوضيحاً، والعلاقة الارتدادية القائمة على إضمار مقصدية المؤلّف من عنوانه فتتخطّم سلسلة التراتب التي وجدت فالعنوان سيقدم صمّماً للمتلقّي، والمقدّمة ستكشف عن جزئية بسيطة من القصد المتخفي في العنوان، ثمّ تنفتح الدلالة في المتن ليأخذ المرتبة الأولى^(٣)، لقد أبانت المقدّمة عن العنوان بشكل مختصر ارتد على منطقة العنوان وامتد المتن مع المقدّمة عبر تطبيق عملي

(١) بحار الأنوار: ١٦/٧٠

(٢) محاسبة النفس اللوامة وتنبية الروح النائمة: ٣٤

(٣) يُنظر: العناوين والمقدمات في كتب التراث النقدي الأندلسي، أطروحة دكتوراه: ١٢٠.

لما جاء به العنوان وتعهّدت به المقدمة، فعلى مدار المتن نجد تكراراً للكلمة النفس، وهي مركز الإدهاش والثيمة المركزية إذ لم تخلُ أيّة صفحة من ذكر هذه الكلمة مثال ذلك قوله: «يا نفس، أحزمني أمرك فمالك بضاعة إلاّ عمرك فلا تفنيه في مأربك»^(١)، وقوله: «يا نفس، هذا يوم جديد، وهو عليك شهيد، فاعلمي فيه الله بطاعته، وإياك وإياك من إضاعته، فإن كلّ نفس من الأنفاس، وحاسة من الحواس، جوهره عظيمة»^(٢).

يرى البحث أنّ المقدّمة في العمل الأدبي تعد بمثابة المولد للعديد من الدلالات التي تمتد على مستوى فضاء المتن الذي يتساق مع ما تحمله تلك المقدّمة من دلالات ورموز ممتدة مع المتن مرتدة على العنوان كاشفة وموضحة لما غمض منه.

إنّ ارتداد المقدّمة والمتن على منطقة العنوان كان ميزة ظاهرة في العنوانات المراوغة التأويلية عند الكفعمي، فمقدّمة كتاب (البلد الأمين والدرع الحصين)، تضطلع بمهمة التوضيح لضبابية الإدراك عند المتلقي للعنوان، وأهم شيء جاءت به هذه المقدّمة تلك الإشارة الفريدة التي اختارها للدخول إلى ثيمة المتن، وهي تبدأ بذكر الدعاء وهي مدخل رائع وفريد للتقديم، ومن ثمّ ينتقل الكفعمي إلى الطلب من الله ﷻ بمحمد وآله ﷺ لإكمال عمل هذا الكتاب ويوضّح الأسباب لذلك، فالدعاء سلّم يرتقى به المراتب العالية، وهو وسيلة إلى الله تعالى وبه يتنفع العالم، كما يتنفع به المتعلم، ويأنس به الزاهد المتنسك، ويحتاج إليه كل من لديه حاجة يطلبها، وهو نعم العون للناس، وهذا أول توضيح وكشف لقناع العنوان وهتك منطقة

(١) محاسبة النفس اللوامة وتنبيه الروح النوامة: ٣٥

(٢) المرجع نفسه: ٣٥

التأويل فيه، فهو يقول: «اللهم وفق لإكمالهِ بمحمد وكرام آلِهِ، من استعان بغير الله ذلٌّ، الحمد لله الذي جعل الدعاء سُلماً نرتقي به أعلى المراتب، ووسيلة إلى اقتناء المحامد، ودرر المواهب والصلاة على من وطئ بأخمصه فلك الأفلاك وهام الكواكب محمد المنتجب، من ذرية لؤي بن غالب وعلى آلِهِ وأصحابه السراة الأطائب، صلاة تَعْم أرجاء المشارق والمغارب وتسمع كلَّ شاهد وغائب»^(١).

إنَّ هذا الخطاب المقدّماتي يختلف في نوعه؛ إذ تمتزج فيه العقيدة وتذوب في مضمار مشترك وقواسم تسير باتجاه واحد هدفه إعلاء تراث أهل البيت (عليه السلام) ونشره، إنَّ هذه الأذكار والأدعية تُعدّ البنية الأساسية التي لا بدّ من الرجوع إليها والاعتماد عليها في كلِّ أنواع الدعاء؛ لأنها تحمل طابعاً تقديسياً خاصاً، بوصفها مروية عن الرسول محمد وآل بيته الأطهار (عليهم السلام)، وقد صرّح الشيخ الكفعمي بذلك وحدّد جنس الكتاب ومحتواه بقوله: «هذا كتاب محتو على عوذ ودعوات وتسابيح وزيارات منقولة عن سادات القادات وقادات السادات الغر الميامين آل طه ويس لا تمج ألفاظها الأذان ولا يبلي معانيها الزمان، مأخوذة من كتب معتمدة على صحتها، مأمور بالتمسك بعروتها لا يغيرها اختلاف العصرين ولا كر الملوك، وقد رسمت ما وضعته ووسمت ما جمعته بالبلد الأمين والدّرع الحصين وهو اسم وافق المسمى ولفظ طابق المعنى»^(٢).

وممّا تقدم تتّضح لنا أهمية هذه الوظيفة في فكّ شفرات العنوان وفتح مغاليقه وإطلاع القارئ على فحوى الكتاب قبل الدخول في متنه. إذ إنَّ الكفعمي كان على وعي تام بهذه الوظيفة وإلاّ لما اهتم بها وأثبت فاعليتها،

(١) جُنّة الأمان الواقية وجنّة الإيمان الباقية: ٩

(٢) البلد الأمين والدّرع الحصين: ٩.

فهذه العلاقة الموجودة بين هذه العتبات المكونة لجسد التأليف تدخل في علاقة ثابتة وقوية تشحن الكلِّ بمكونات النصِّ كافَّة، وهنا يكمن السر وراء تسمية الكتاب وتحديد جنسه وسبب اختيار الموضوع وغيرها من الأمور؛ فالمؤلف هو الذي يكون قارئاً قبل كلِّ شيء؛ لأنَّه بذلك يصل إلى ذهن القارئ الفعلي، ويعرف ويتقصَّى مطالبه بطريقة فعالة ليفيده أولاً، وينجح مؤلفه ثانياً عادداً له متلقياً افتراضياً.

ويمكن لنا أن نصنّف مقدّمات كتب الكفعمي بحسب الأهميَّة فتأتي في سُلّم المقدمات المقدّمة الخاصّة بالوظيفة التعيّنيّة التي تحضر في الكتاب بوصفها عتبة ثانية بعد العنوان الذي لا يمنح للمتلقّي قراءة واضحة؛ بل يدخله في دوامة تأويلية لا يصحو منها إلّا بالدخول في نصّ المقدّمة وهذا النمط من المقدّمات هو مركزي الحضور، بوصفه متناً مهمّاً للكشف والتعيين، في حين أنّ النمط الآخر من المقدّمات ذات العنوانات الواضحة والتي ذكرناها في وظيفة الأهمية تحضر حضوراً يكاد يكون هامشياً؛ لأن المتلقّي قد دخل إلى المقدّمة وهو ممتلئ الذهن عارف بأسرار الكتاب لذا هذا النمط من المقدّمات هو نمط ثانوي تكميلي يعضّد العنوان في المقدّمات الكتب التي تعين العنوان والتي تشي باسم الكتاب منذ اللحظة الأولى للتلقّي.

نتائج البحث

١. تشفُّ المدوَّنة الخاصة بنتاج الكفعمي عن وعيٍّ عميق في نُظم تشكيل العنوان وبنية المقدمات.

٢. في الغالب خضع تشكيل العنوان في جانب البنية اللغوية لقاعدة أساسية: مسند إليه + مسند (كتاب) محذوف + مضاف إليه + مضاف إليه + حرف جر + اسم مجرور + مضاف إليه، وربما تمتعت هذه المعادلة بنوع من الثبات في عنوانات النمط التعيني.

٣. توصّلت الدراسة إلى أنّ الكفعمي يتناص مع القرآن الكريم في قسم كبير من عنواناته، والقسم الآخر ألبسه حلّة نسجها العقيدة والتاريخ الإسلامي.

٤. انقسم العنوان في مصنفات الكفعمي على قسمين: الأول واضح بيّن يمنح المتلقّي صوراً أوليّة عن ملامح النصّ المكتوب، والقسم الآخر أثر فيه الإغرائيّة والإيحائيّة التي تتطلّب الدخول في عمليّة تأويل مستمرّة.

٥. انماز التقديم عند الكفعمي ببنية مقدّماتية متنوّعة خاصّة؛ إذ لم يلزم نفسه في بعض مقدّماته بما تعارف عليه مصنفو القرن العاشر الهجري من آلية بناء المقدمات؛ إذ ابتدأ في بعض مقدّماته بذكر الدعاء وبعضها دخل إلى غرضه مباشرة.

٦. كشفت الدراسة عن وظيفتين من وظائف العتبات في مقدّمات كتب الكفعمي وهما: وظيفة التعيين ووظيفة الأهمية، ورصد البحث خاصية في مقدّمات الكتب ذات العنوان الواضح البيّن؛ إذ كانت تلك المقدمات تحضر حضوراً يكاد يكون هامشياً؛ لأنّ المتلقّي قد دخل إلى المقدّمة

وهو ممتلئ الذهن عارف بأسرار الكتاب؛ لذا هذا النمط من المقدمات هو نمط ثانوي تكميليّ يعضد العنوان في مقدمات الكتب التي تعيّن العنوان والتي تشي باسم الكتاب منذ اللحظة الأولى للتلقّي.

٧. تكمن أهميّة المقدمة عند الكفعمي في رسم خارطة الكتاب المراد طرحه وتوضيحه، بطريقة جذب مميّزة؛ إذ يبيّن أهميّة منتجه عبر آليات متعدّدة منها: فائدة العمل بمضمون المتن، والمصادر التي اعتمدها في جمع مؤلفه، وباختيار الآيات القرآنية والأحاديث النبويّة وأحاديث أهل البيت عليه السلام بما يناسب مضمون المتن.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولاً/ الكتب:

١. الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي
الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢ م.
٢. البلد الأمين والدرع الحصين، للشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي بن
الحسن العاملي الكفعمي (ت ٩٠٥هـ)، قدم له، علاء الدين الأعلمي،
بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٧ م.
٣. جنة الأمان الواقية وجنة الإيمان الباقية، للشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي
بن الحسن العاملي الكفعمي (ت ٩٠٥هـ)، مؤسسة النعمان، بيروت، لبنان،
١٩٩٢ م.
٤. رتق الفتوق في معرفة الفروق، للشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي بن
الحسن العاملي الكفعمي (ت ٩٠٥هـ)، تحقيق، مركز تراث كربلاء، دار
الكفيل كربلاء، العراق، ط ١، ٢٠٢١ م.
٥. صفوة الصفات في شرح دعاء السمات، للشيخ تقي الدين إبراهيم بن
علي بن الحسن العاملي الكفعمي (ت ٩٠٥هـ)، تحقيق السيد حسين
هادي الموسوي، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، كربلاء، العراق، ط ١،
٢٠١٨ م.
٦. عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص)، عبد الحق بلعابد،

- منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.
٧. في نظرية العنوان "مغامرة تأويلية في شؤون العتبة النصّية"، د. خالد حسين، دار التكوين للطباعة والنشر، ط ١، ٢٠٠٧ م.
٨. الكتابة والمحو التناسية في أعمال رجاء عالم الروائية، معجب العدواني، دار الانتشار العربي، بيروت لبنان، ط ١، ٢٠٠٩ م.
٩. لسان العرب، لأبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري الإفريقي المصري (ت ٧١١ هـ)، تحقيق: عامر أحمد حيدر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣.
١٠. ما لا تؤديه الصفة، د. حاتم الصكر، بيروت، لبنان، ١٩٩٣ م.
١١. محاسبة النفس اللوامة وتنبيه الروح النوامة، للشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي بن الحسن العاملي الكفعمي (ت ٩٠٥ هـ)، تحقيق فارس الحسون، مؤسسة الفكر الإسلامي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩١ م.
١٢. مدخل إلى عتبات النص دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، عبد الرزاق بلال، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٠ م.
١٣. نظرية البنائية في النقد الأدبي، د. صلاح فضل، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط ٣، ١٩٨٧ م.
١٤. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت ١٠٤١ هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٠٠ م.

١٥. هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل، شعيب حليفى محاكاة للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا ط ١، ٢٠١٣ م.

ثانيًا/ الرسائل والأطاريح:

١. العتبات التأليفية المحيطة في أعمال صنع الله إبراهيم الروائية، رسالة ماجستير إعداد الطالبة، وداد هاتف أحمد وتوت بإشراف الأستاذ المساعد الدكتور أوراد محمد، قسم اللغة العربية في كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة بابل، ٢٠١٢ م.

٢. العناوين والمقدمات في كتب التراث النقدي الأندلسي في (القرنين السادس والسابع للهجرة)، دراسة تحليلية نقدية، عاد كامل أطروحة دكتوراه، بإشراف أ.د. فاروق عبد الله الحبوبي، جامعة كربلاء، ٢٠١٨ م.

٣. مكونات النص الروائي (تطبيق شبكة القراءة على روايات محمد برادة)، (أطروحة) لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف: د. واسيني الأعرج، كلية الآداب واللغات، جامعة الجزائر، ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨ م.

ثالثًا/ البحوث والمجلات:

١. إشكالية مقارنة النصّ الموازي وتعدد قراءته - عتبة العنوان نموذجًا، (بحث) د. محمد التونسي جكيب، مجلة جامعة الأقصى، يونيو ٢٠٠٦ م، عدد خاص بأعمال المؤتمر العلمي الدولي الأول لكلية الآداب/ جامعة الأقصى (النص بين التحليل والتأويل والتلقي) المنعقد في يومي الأربعاء والخميس ٥ / ٦ أبريل ٢٠٠٦ م.

٢. السيميوطيقا والعنونة، د. جميل حمداوي، مجلة عالم الفكر، المجلد الخامس والعشرون، العدد الثالث، ١٩٩٧ م.

٣. لماذا النصّ الموازي، د. جميل حمداوي - المغرب، مجلة الكرمل، عدد ٨٨ - ٨٩، ٢٠٠٩ م.
٤. النصّ الموازي - آفاق المعنى خارج النصّ، (بحث) أحمد المنادي، مجلة علامات، ج ٦١، مج ١٦، ٢٠٠٧ م.
٥. وظائف العنوان في شعر مصطفى القطري، بحث في مجلة مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، العدد الرابع جامعة سكرة، ٢٠٠٨ م.